التحية الثانية :

تحت عنوان (رحيل عالم)

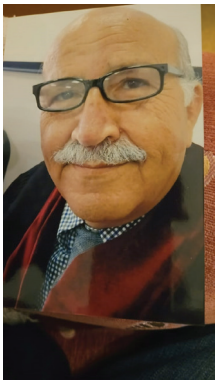

بقلم الأستاذ الدكتور محمد علي القوزي

رئيس قسم التاريخ في كلية العلوم الإنسانية في جامعة بيروت العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[(1)].

ومداد العلماء كدماء الشهداء فيه قداسة وديمومة واحترام، وفيه الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث[(2)]: إحداها علم ينتفع به وها قد رحل العالم تاركاً إرثاً للأجيال الحاضرة والمستقبلية لتنتفع بعلمه.

وإذا كان من كلمة وفاء بحق هذا العالم فأقول:

تعرفت عليه طالباً عام 1968 في جامعة العرب، جامعة الشعب، الجامعة التي كسرت أبواب احتكار التعليم العالي في لبنان، عنيت **جامعة بيروت العربية** التي امتد شعاع علمها الى معظم الدول العربية.

(1) سورة البقرة : اية 156-155

(2) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، .بَابُ الْوَقْفِ: 931 ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِذَا مَاتَ ابنُ آدم انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ.

كنت طالباً في قسم التاريخ، أفخر بأساتذتي وعظمتهم العلمية كما أسعى لأن أبقى في الطليعة منافساً له، فقد كان من المستنيرين والمجتهدين.

حملنا الإجازة، والتحق بميدان التعليم الرسمي ليستطيع نشر فلسفته وفكره المعتدل وكان له ذلك في مجال التعليم الرسمي في مدينة جبيل، تلك المدينة الأثرية التي تفخر بتعدد الديانات والمذاهب فيها.

كان يقول لي «كانت تلك الفترة أسعد أيامي. ولكن اثنان لا يشبعان، طالب العلم وطالب المال، ولم يطلب المال يوما أو يفكر به. لذلك انصرف لطلب العلم، وتابع الفترة الأولى من دراسته العليا ليحصل على «دبلوم تربية» من جامعته التي لم يكن فيها مرحلة علمية أعلى من ذلك، نال الدبلوم_بمرتبة الشرف العليا، وارتحل الى الإسكندرية ليعادل هذه الشهادة بمرحلة الماجستير ويتابع عمله العلمي ليحصل على أعلى درجة علمية وهي دكتوراه دولة من قسم التاريخ في جامعة الاسكندرية وكان ذلك في عام 1981 وبمرتبة الشرف الأولى.

ومن تلك السنة بدأ جهاده، في الجامعة اللبنانية بعدما انتقل من التعليم الثانوي الى التعليم الجامعي، وكان ذلك في زمن من أصعب الأزمنة التي مر بها وطننا الحبيب لبنان، مرحلة الحرب بين عامي 1975 و 1989، في هذا الوقت العصيب تسلح بالعلم ليبني وطناً أساسه العلم لا التعصب أو الجهل.

لقد تربى عالمنا كما تربيت انا على يد مناضل صامت، يعمل بجهد في سبيل أمته، وهو الحاج توفيق راشد الحوري رحمه الله، تربية تقوم على الجبأنواعه، واختار فقيدنا الكلمة عنوانا للجهاد.

آمن بأن العمل المؤسساتي يبني الأمم، ولكن أنى له ذلك وبلادنا تمر بظروف قاسية، ومع ذلك عمل مع الحاج توفيق الحوري في جامعته، جامعة بيروت العربية فكان من أمنائها، وكان في مجالسها العلمية مفكرا وواضعا الخطط والبرامج لرفعها الى مستوى الجامعات الكبرى، وأكثر من ذلك كان عضواً مؤسساً في وقف المركز الاسلامي للتربية وفيه كليتان للدراسات الاسلامية وادارة الاعمال الاسلامية وبقي مديرا لهذا المركز حتى اللحظات الاخيرة من حياته.

وهل لطموح العالم من حدود، لقد اختارته القيادة الدينية ليكون عضوا في المجلس الاسلامي الاعلى، وتوالت الايام، وكثرت المسؤولية كيف ينشر فكره، وهل هناك اسمى من الكلمة لذلك، فكثرت مؤلفاته حتى قاربت السبعين مؤلفا في مجال علمي بحت. ذلك ان بناء الانسان اهم من بناء ناطحات سحاب او اجراء عملية لجنين في بطن امرأة حامل. كان فخورا بأنه سيبني اجيالا ستتابع مسيرته، فأشرف على العديد من رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه في الجامعة التي عمل بها وهي الجامعة اللبنانية، ولكن ذلك لم يمنعه من متابعة عمله التطوعي في جامعته التي كونته وهو ابن جامعة بيروت العربية، كان يعمل ويبني ابنيته كعالم بالبحث عن الحقيقة فكان انتاجه وهو ابن بيروت المحروسة ان وضع الموسوعة العلمية الشهيرة لأنساب البيارتة من خلال: «موسوعة العائلات البيروتية» عمل قد تعجز عنه المؤسسات فقام به منفردا وجهد بالعمل عليه اكثر من ثلاثين عاما بدأب وصبر قل نظيره، كيف لا يكون ذلك، وهو الذي نقب وحقق في ارشيف المحاكم الشرعية ورأى الحيف والتحريف يلحق بالكتابات التاريخية فانبرى مدافعا عن الدولة العثمانية التي وصفها معظم المؤرخين بالظلم والدموية مع أن الكثير من مؤسساتها وقوانينها ما زالت تعتمد عليها دولتنا الحالية فقراءاته الجديدة تقوم على الدفاع عن هذه الدولة التي نشرت العلم وسمحت للإرساليات الأجنبية في العمل عندنا لتساهم في نهضة وطننا، هذه القراءة التي مسحت الافتراءات الكاذبة عن هذه الدولة، وكان بذلك قد أوجد تيارا نهضويا بعيدا عن التفتت والعصبية.

ولا أبلغ من ذلك اهتمامه بتاريخ لبنان الحديث والمعاصر وقد كان طلبته الكثير الذين عملوا وما زالوا في مراكز قيادية في الدولة اللبنانية، يعيدون كتابة هذا التاريخ الذي عمل السابقون على ملئه بالحقد والطائفية. لقد عمل دائما على تبيان الوجه الحقيقي المستنير لوطنه، كيف لا وهو المواطن العربي الذي سعى دائما للدفاع عن القضية الفلسطينية وسعى لنشرها بين طلبته سواء في تدريس المواد التاريخية والاعلامية او الاجتماعية او الانسانية. هذا هو فقيدنا الذي رحل وما زالت صدقته الجارية بين أيدينا ومازال علمه ينتفع به، هذا هو حسان حلاق أمضى حياته يحاضر ويؤلف ويطبع وينقح لينشر اضواء في ظلام الجهل. هذا الذي اقتصرت حياته على العلم فقد كان حتى آخر ايامه يشرف على أطاريح طلبته، قال لي: «**هؤلاء أبناؤنا امانة في اعناقنا، سيتابعون مسيرتنا، تابع الاهتمام بهم**».

هذا هو ملخص رسالته، هذا هو العالم الذي رافقته اكثر من خمس وخمسين سنة من حياته، امضيت اوقاتي معه في العمل في جامعتنا في قسم التاريخ في جامعة بيروت العربية وفي مؤسسات المركز الاسلامي التربية، في كلية الامام الاوزاعي للمؤسسات الاسلامية، حمل الراية بعد وفاة مؤسسها وهو يسلمها الان بعد رحيله لرجال اكفاء آمنوا بأن الامم لا تبقى ولا ترقى الا باعتماد العلم وسيلة وبالبعد عن العصبية والجهالة وبناء جيل جديد.

آمنت به عندما وجدت كل الطلاب بلا استثناء يقفون بجانبي، ويواسونني بفقد الغالي.

ووداعا د. حسان لقد نجحت بمهمتك في الدنيا، رحمك الله.